٤ ـ عقرب

وقف أمام الباب أكثر من مرّة. كانت الحيرة تحوم في الجوّ، ثمّ تحطّ فوق أكتافه ثقيلةً. ترك الباب نصفَ مفتوح وعادَ من جديد إلى الدّاخل. أشعل جهاز التلفزيون. أطفأه بعد دقيقة. وضع شريطاً في المسجّل. أخرجه قبل أن تصدح الموسيقى. تمدّد على السّرير. أغمض عينيه، ثمّ قام فجأةً. اتّجه نحو الحائط وضربه بجمع يده.

كان الألم الذي نبت فجأة في زنده، تحت ساعة اليد، فظيعاً. راح يخزُه باستمرار، يتوقّف لحظة ثمّ يعود كأعنف ما يكون الألم.

حكّ زنده حتى سال الدّمُ وانتفخت الذّراع.

وعاد إلى الحائط يضربه بعنف ولا يتوقّف...

همس حزيناً:

ـ «ما أقسى لسعة هذا العقرب... عقرب السّاعة!»

أم العرائس/قفصة

أوسع رؤية

محمد ابراهيم الحاج صالح

أَنْذَبحُ وأنا أتقلبُ في الفراش. سبعة أيام مرّتْ وما ذاقت عيناي النوم، أعصِّب عينيَّ بقماش أسود، فتنخرني فكرةٌ طارئة لتذكّرني أنّ النوم ما هو إلاّ موت صغير، وتتسلسل المخاوف مشدودةً من الأفق إلى الأفق كسبحة لا تنتهي، مخترقةً رأسي كأنّها جنٌّ مشغولة بي وحدي، فأنتزع العصابة وأُشغل نفسي بقراءة المجلات والتفرّس بالصور إلى أن أتعب. أعاود المحاولة؛ أتعصّب بعصابة الاختفاء في الظلام منتظراً النوم؛ لكنه لا يأتي. أقوم من جديد وأنا أضرب رأسي بيدي وأتحيَّر: أقرأ..؟ أستحمّ..؟ أخرج لأتمشّى..؟ أضاجع زوجتي..؟ أصلّي..؟ البعض يظنون أننا لا نصلّي!! ومهما فعلت فأنا واثقٌ من أنّ النوم لن يأتي.

وترتسم الصورةُ المعذِّبة في ذهني... تتغبّش الصورة وتتظهّر من نفسها كأنني أنظر إليها من خلف كاميرا أضبط عدستها، فأرى فمه يترع دماً. كم في جسم ابن آدم من الدم..؟!! يتلوّى، يأتيه الغثيان، يتموّج من قدميه إلى ساقيه ففخذيه، ومن يديه إلى ذراعيه فكتفيه؛ يتكوّر، والموجة تضرب جسده، فتتلاقى قوى الغثيان في بطنه دافعةً بأحشائه إلى الخارج كما يُقلب الثوبُ على دروزه، وينقذف الدمُ ساخناً متبخّراً كأنه ماءٌ غالٍ يُسكب على الأرض ويتصاعد البخارُ من مستنقع الدم ثم يتلاشى.

لم أكن أريد موته، في ظهر ذاك اليوم، رغم أننا دائمو التفكير به لأنّ مهنتنا هي العمل على حافّة الموت. يكاد جسد الواحد منهم يهوي ميّتاً، فنوقف التعذيب وننتظره، حتّى نتأكد من تجدّد قواه، فندفعه من جديد إلى الحافة، موقظين عزرائيل بصراخه. تلك مهنتنا، وستبقى كذلك سواء صرخ أم رجا. ستبقى، حتى لوْ أخطأنا التقدير وسقط من الحافّة. هي مهنتنا مثلما للآخرين مهنهم. ولن نحاسَب عن روح نُدحرجها إلى حضن عزرائيل؛ فالزمن زمنُ طوارئ، والموتُ عندنا يُحسَب حساباً قَدَرياً مثله مثل موتِ ماشٍ تسقط عليه شرفةُ بيت، ومثل الميت بالجلطة. وهل يُسأل القدر؟

لكننا، بعد كلِّ حساب، بَشَرٌ يُقرفنا الدمُ وتزعجنا رؤيةُ ضعف الإنسان. إنّ كلمات الاستعطاف التي يلفظونها بآلية الألم تجعلني محشُوّاً بالغضب، فأضربهم بأقسى ما أستطيع، ويتلبّسني شيطانٌ قاهر يدفعني إلى كرمٍ طاغٍ لهم عندما تمتلئ الغرفة بتوجّعهم وصراخهم: «دخيلك. دخيل النبي. دخيل الله. أبوس رجليك...». وازداد حقداً ورغبةً لا تُردّ في تعذيبهم، وأبتكر أساليب يحسدني بعضُ زملائي عليها: يوم أو يومان كافيان لاعتصار الواحد منهم وجعله ينخل معلوماتٍ من كلّ جسده، حتّى ليعجز الكاتبُ في كثير من المرات عن لملمة المعلومات الهارّة مثل ورق شجر الخريف في الريح.

... منْ أين يأتون بالنوم يا رب السموات؟! قبْله كثيراً ما تسلّيت بواحدٍ منهم، فأتي به حتى لو كان مُودَعاً لساعاتٍ، أو كان «منهيَّ الوضع» عندنا، أو كان معتَقَلاً جديداً ممنوحاً الساعات الأولى ليسكن ويشاور نفسه. أخرجته من الزنزانة المنفردة وأنا أنوي التسلّي به إلى أن يحين وقت الانصراف. كانت اعترافاته قد اكتملتْ إلاّ من توقيعه. وكان رئيسي قد أمرني أمامه أن أجهّز أوراقه وأجعله يوقّع تمهيداً لنقله إلى السجن. أدخلتُه غرفةَ التعذيب وتركتُه نصف ساعة كافية لإقناعه بأنّ حفلة تنتظره. ولمّا عدتُ إلى الغرفة تلهيت دقائقَ أخرى بأوراقِ اعترافه لأفسح المجال للقلق بالتسرّب إلى كل خليّة في جسده. قلت وأنا أفرقع أصابعي، وهي الحركة التي تستحوذ عليَّ عندما تتآكلني الرغبةُ في ضرب أحدهم: «إي يا بطل ما الذي بقي ولم تقلْه»؟! قال: «قلت كل شي أعرفه». قلت: «لا ليس كل شيء، قلْ هذا الكلام لغيري، أمّا أنا فلا أصدّقه». ظلّ صامتاً يحدق بي وأنا أنشحن شيئاً

فشيئاً بالغضب متسائلاً كيف يجرؤ على التحديق؟! ثمّ فاجأتُ نفسي وفاجأته بصرخة كأنّها ضربة من يد القدر: «سأمـوّتك، والله، إن لم تهـرّ كلّ شيء عندك.. كل شيء.. أفهمت؟» انكمش وتلقّى بيديه وساعديه ضربات غير مرئية كأنّ أيادي سحرية تضربه ضربات متتالية، وتكوّم منتظراً نتيجة غضبي. ولكنني بقيت قاعداً على كرسيّ الخيزران، تركتُهُ ليعيش دقائق الرعب، وانتظرتُ حتى سكنتْ حركاته المتوقيّة من ضربات لا وجود لها. قلت: «قف إلى جانب الحائط يا ابن المَفْعُورَة». نهض على رجليه وهو يرتعد. ورأيته يجمّع ما بداخله ليقوم بشيء ما، لم أفهم ما هو في البدء لكنّني تبيّنتُ من ارتجاف شفتيه والرجاءِ العالقِ في عينيه أنّه يريد الكلام، وتوقعتُ أن يقول: «نسيت اسم فلان»، أو أن يصحّح معلومةً في اعترافاته. لكنّه تجرّأ أخيراً وقال بحروف يكاد يخرج كلُّ حرف منها وحده، وتخايلتْ لي الحروف التي نطقها وهي ترتعش في الهواء. قال: «ألَم يقـ ... لْ لك رئيسـ ..... ك دعْـ .. ـه.. يو .. يو .. قّع وأنْـ ... ـهِ المـ ... سْـ ... ألَة؟».

لو أنني نظرتُ إلى نفسي في تلك اللحظة لما عرفتُني لأنّ الغضب انتفض منّي في كل الاتجاهات. ووقف شعر رأسي وحمحم الحقد في صدري. صرخت: «أتجرؤ يا ابن الـ...»؛ ولمْ تأت الكلمة التي أريدها: فلا الشرموطة، ولا القحبة، ولا الكلب، ولا الكلبة... ولا كل السباب الذي لفظته الألسنُ كان يكفيني أو يُشعِرني بأنني وجدت الكلمة المناسبة. واندفعتُ إليه، وأنا أحبس نفسي لأجمّع كل عنفي، ولكمتُهُ في بطنه بقوّة أشعرتني بسحق فقرات ظهرهِ عبر أحشائه. وللحظة غمرني إحساسٌ بالراحة وشهقتُ نَفَساً عميقاً كأنّني رُشقتُ بماء باردٍ وأنا عـارٍ. وفي اللحظة التـاليـة رأيت في عـينيـه الدهشة والألم، وارتخى جفناه كستارة تُسدل، وتشابكت يداه وهمـا تضـغطان على الألم في بطنه، وسلت بهدوءٍ ساحـباً ظهـره على الحـائط. وقبل أن يصل إلى الأرض فتح عينيه ونظر إليّ نظرة ممتلئـةً بأمل مـذبوح وابتـهـال. تمدّد على الأرض، ثم تكوّم قاذفاً الدم كنافورة من فمه، واستلقى أخيراً مرتخي الأعضاء للحظات، ثم تكوّم مرّة أخرى دافعاً بكل قوة جسـده الدمَ الحـارّ المزبد. يتكوّم. ويرتخي. وبين التكوّم والارتخاء تضيء عيناه وهما تبحثان عنْ وجهي لينظر تلك النظرةَ التي ستورثني القلقَ والأرق. وفي آخر قذْفَةٍ لم تكتمل نَظَرَ إليّ مُستعطفاً ومدّ أصابعه المرتعشة المصبّغة بالدم كأنّه يريد قول شيء، أو كأنّه يريد التشبّث بشيء خفيٍّ معلّق في الهواء، ثم سقطتْ يداه في حركة مضطربة ورجّتْ جَسَدَهُ موجةٌ جديدة من الغثيان لمْ تتم. انعطفت أطرافه نحو بطنه ومستْ ذقنُه صدرَه، واقترب من ملاقاة لحظة انفتاح نافورة الدم عندما ارتخى تماماً ونفرتْ أطرافُهُ مبتعدةً عن جسّده كأنه يدخل إلى عمق النوم. ومن بين أسنانه انسرب الدمُ كأنّه دفقـةٌ أخيـرة لنبعٍ واهنٍ تتـغوّر ميـاهه. وتثبّتت عيناه على وجهي، ورأيتُ جفنيه ينحسران إلى أقصى محجريهما كأنّما ليتركا لعينيه أوسعَ رؤيةٍ ممكنةٍ في آخر لحظة بالحياة. وراح بريقُ عينيه يذبل كذبالة سراج منطفئ، أو كحجرِ مَرْوٍ أملس مبلّل يوضع تحت شمس حامية تُبخّرِ الشمسُ رطوبته شيئاً فشيئاً، وتظهر بقعة صغيرة الهبت الحرارةُ بَلَلَها، فتبخّر ماؤها تاركاً البقعة ناشفةً تتوسع قليلاً قليلاً إلى أن يستولي اليباسُ على كامل سطحها.

الرقة

مدينة القبور

لينا الحاج مُعلا

عندما فتحتْ هدى العارف عينَيْها كان قد مضى على موتِها ثلاثُ سنوات.

في السنةِ الأولى ضرب زلزال مُدَمِّرٌ مدينتَها بأَسْرِها. في السنة الثانية اكتسحها فيضانٌ جارف. في السنة الثالثة اندلع بركانٌ مجاورٌ، كان خامداً لعدّةِ قرونٍ، فأجهزَ على البقيّةِ الباقية من سُكّانها.

مع انتهاء السنة الثالثة فتحتْ هدى عينَيْها، فاكتشفت الظلامَ الأبديَّ الذي كانت ترقدُ فيه. كان الموتُ قد بدأ ينسحبُ من جسدِها شيئاً فشيئاً، وبدأت عيناها تألفان الرؤيةَ في الظلام. شاهدتْ جسَدَها مُسَجّى في حفرةٍ مستطيلةٍ مُظلمةٍ تُغَطّيها عِدّةُ بلاطاتٍ حجريّةٍ ثقيلة تعلو جسدها ورأسَها بعضَ الشيء.

كانت ميِّتةً إذنْ! أدركتْ ذلك غَيْرَ أنها لم تَهْلَعْ. ولكنْ أذهلها أنّ جسدَها كان سليماً تماماً. وعندما بدأتْ تتحسَّسُهُ من باب التيقُّنِ استرعى انتباهَها أنها كانت بكامل ملابسها، أيْ أنها لم تكن ملفوفةً بكَفَنٍ يعوق تحرّكاتِ ساقَيْها أو ذراعَيْها.

رفعتْ يَدَيْها ببطءٍ، ودفعتِ البلاطةَ الموضوعة فوق رأسها، فتحرّكَتْ نحو الأعلى قليلاً. بعد عدّة محاولات أفلحت في دَفْعِها نحو سطح القبر وإحداثِ فجوةٍ على العالم الخارجيّ. سحبتْ نَفْسَها ببطء شديد زاحفةً على ظهرها ومتّكئةً على مِرْفَقَيْها واستندتْ إلى جدار القبر الداخليّ. توقّفتْ قليلاً

لتستردَّ أنفاسها وتستجمعَ قِواها، ثم بذلَتْ أقصى جهدها للخروج إلى النور.

. حين وقفتْ على سطح الأرض ألْفَتْ نفْسَها في مقبرةٍ مترامية الأطراف. كانت شواهدُ القبور تنتشر حيثما ولَّتْ وجْهَها. وتهادَتِ الذكرياتُ على صفحة روحها غائمةً كأطيافِ مراكب الصيد عند الغَسَق. لطالما اعتادتْ أنْ تَؤُمَّ هذه المقبرة في السابق بصُحْبةِ أمِّها وإخوتها لزيارة قبر أبيها، ولكنها لم تكن بهذا الحجم قَطّ. كانت تلك المقبرةُ صغيرةً إلى حدٍّ ما، أمّا هذه فأَشْبَهُ ما تكون بمدينةٍ كاملةٍ من القبور. اللّهُمَّ إلا إذا كانت أعدادٌ هائلة من البشرِ قد فارقتِ الحياةَ بعد موتها هي ودُفِنَتْ هنا. ولكنْ، مهلاً! إذا كانت هذه الآلافُ المؤلَّفةُ من القبورِ لأُناسٍ ماتوا بعدها، فهذا يعني أنّها تُوُفِّيتْ منذ قرون. ولم تكن تعرف متى تُوفِّيتْ؛ فقد كان إحساسُها بالزمن الأرضيِّ معدوماً في تلك اللحظة.

كان السؤالُ الذي طرحَ نفسَه بعد ذلك هو أيّ اتجاهٍ يتحتّم عليها أنْ تَسْلُكَه للخروج من هذه المقبرة وفي أسرع وقت. وسرعانَ ما اختارت وجهةً لا على التعيين وسارت فيها. راحت تسلكُ الدروبَ الضيِّقة الكائنةَ بين القبورِ، وراح كُلُّ دربٍ يقودُها إلى دربٍ آخرَ ينفتح بدوره على درب ثالث، وهكذا دواليْك إلى أنْ وجدتْ نَفْسَها بغتةً، وجهاً لوجهٍ، أمام قبرٍ كانت تتكدَّسُ فوقه كومةٌ من التراب الرَّطْبِ الطّريِّ تعلوها بلاطةٌ حجريّة. لقد كان ذلك هو القبرَ نفسَه الذي خرجت منه قبل قليل!. لقد عادت إلى نقطة الصِّفر إذن! يبدو أنها كانت، وهي تنعرج ذاتَ اليمين وذات اليسار، تسيرُ ساهمةً شاردةَ النظراتِ فاتَّبعَتْ دروباً أعادتْها، دون أن تفطنَ، إلى المكان الذي جاءت منه. كان عليها الآن أن تسيرَ في خطٍّ مستقيم لا تحيدُ عنه حتى تبلغَ بوّابة المقبرةِ أو أحدَ أسوارها على الأقلّ. ولكنْ، أنّى لها أنْ تسيرَ على الاستقامةِ نَفْسِها وليس ثمّةَ نقطةُ عَلامٍ واحدةٌ وسْطَ هذا البحرِ المتلاطم من شواهد القبور... ناهيك عنْ أنها ستُضْطَرُّ، مُراعاةً لحُرْمةِ القبور، إلى الالتفافِ حول المئات منها إذا سارت في خطٍّ مستقيم.

ومع ذلك، لم تتردّدْ كثيراً. بل انطلقتْ قُدُماً وقد وضعتْ نُصْبَ عينيها هدفاً واحداً: هو الخروج من متاهةِ هذه القبور. ومَضتِ الساعاتُ، واحدةً تِلْوَ أخرى، وهدى تسيرُ نحو غايتها المنشودة. لكنَّ القبورَ كانت تواصلُ الانتشارَ، وكان مَثَلُ هدى كَمَثَلِ نَملةٍ تسيرُ في صحراءَ شاسعةٍ. إلى أنْ هدَّها الإعياءُ، فجلستْ على حافّةِ قبر قريب ثم لم تلبثْ أنْ توسَّدَتْه وغطَّتْ في النوم.

عندما استيقظتْ صباح اليوم التالي كانت أوْصالُها ترتجف من حِدّة البرْدِ، وكان الجوعُ قد أخذَ منها كُلَّ مأخذ. بثَّتِ النظرَ حَوْلَها علَّها تحظى بِنَبْتَةٍ تُؤْكَلُ لتسدَّ بها رمقها. وفجأةً وقعتْ عيناها على ما أطار صوابَها: لم يكن القبرُ الذي توسَّدَتْهُ إلا القبر نفسه الذي خرجتْ منه صباحَ البارحة.

ازداد ارتجافُ أوصالِها وبدأتْ أسنانُها تصطكّ. صارَ لزاماً عليها الآن أن تبحثَ عن مكانٍ يَدْرَأُ عنها غائلة هذا البرد اللاسع. مَسَحَتِ المكانَ بنظرةٍ أخيرةٍ متثاقلةٍ، فلم يرتَسِمْ على مرآة عينَيْها إلاّ انعكاسات آلاف الشواهد البيض. واحتدَمَ في داخلها النِّزاعُ بين غريزةِ البقاء وبين غريزةِ إفْنَاءِ الذّات. أخيراً، زحفت إلى الفتحةِ. وببطءٍ شديد بدأت تنزلق إلى داخل الحفرة المستطيلة التي كانت مدفونةً فيها. شيئاً فشيئاً بدأ خَدَرُ البرودةِ يُحْكِمُ قَبْضَتَهُ على جسدها المستلقي، وشيئاً فشيئاً راحت تغطُّ في موتٍ عميق.

اللاذقية

السجين المصاب بكآبة انفعالية

جنان جاسم حلاوي

نفير البوق يَجْمعنا، وهو ذاته يفرّقنا، نحن الجنودَ الصغارَ المنتشرين في فصائل السَّريّة الأولى، التابعة لمركز تدريبِ مُشاة البصرة. ذلك الصباح لَنا النفيرُ ولَمْ يشتتنا؛ ثم انسَبْنا حسب النسق العسكري، وتحت إمرة نائب ضابطٍ يتمشى كالبطّة إلى مستودع السلاح، حيث وُهبنا بنادقَ محشوّةً بالرصاص ومتوّجةً بحراب لامعة، ففرحنا بقوة السيطرة التي سنمتلكها في الاشتباكات. غير أننا، ذاك النهارَ المشمس، لم نحارب، ولم نعرف الغاية من قوّتنا إلا بعد أقلّ من ربع ساعة عندما سَحَبنا مرةً أخرى النائبُ الضابطُ البطةُ ملوِّحاً بعصا التبختر إلى ساحة العرضات (التدريب)، ونحن ننفصل في مسيرنا إلى جزئين أُفعوانيين لنطوِّق مجموعةً من المخلوقات الحليقة، الذليلة، القاعدة أو الواقفة تحت شمس وهّاجة، تنتظر منذ ساعات ترحيلَها إلى السجون أو منصّات المشانق، في أصقاع متفرقة من البلاد...

لم تكن للسجناء أسماء، بل أرقام فقط. وكنّا نحن أيضاً أرقاماً، غير أننا كنّا أرقاماً مسلّحة. وهذا ما جعلنا نحمد ربّنا على سعادة حظّنا، وعلى حظْوتنا كجنود لدن الآمر المكرش الذي يرعانا كما يرعى بقرته المدلّلة الطائشة التي تجبرنا، غالباً، على لمّ روثها من فناء معسكرنا وردمه في الحديقة الخلفية لبهو الضباط حتى تزداد الأرض سماداً وخصوبةً وبهاء.

وكان ممّا يزيد فَخْرنا خوذُنا اللامعة وصحّتنا المتينة، مقابل كائنات هزيلة، مصفرّة، أقرب إلى أن تكون ممسوحة السمات بأسمالها الكاكية الوسخة الممزقة، وأحذيتها البالية، أو أرجلها الحافية المتربة المثيرة للشفقة. ثمّ فُرزنا بشكل متتال مع تصنيف المعتقلين، فكانت حصةُ كلّ جنديٍّ حارسٍ معتقلاً واحداً، عليه مهمةُ إيصاله إلى حبسه أو إلى مشنقته. وفي الوقت ذاته زُوِّدنا بكلبشات فضية أنيقة، أذكر أنني قرأتُ على صفحتها اللامعة «صُنع في ألمانيا».

تقدّم مني سجينٌ نحيف، له عينان حمراوان، زائغتان، يخطو بصعوبة، ويدان تتكئان على الهواء مثل سكران؛ سحنته سمراء، قاتمةٌ، وأسنانه صفر. كان يتطلّع فيّ بسكينة وكأنّني أبوه. وأما ما جعله يزداد بطئاً فهو نعاله الإسفنجي المقطوع. مدّ لي كفَّيْه، فكلْبَشْتُهُ بحماس الحارس. كان معصماه أنحف بكثير من مساحة التقييد المطلوبة في حلقتي الكلبشة، فخفتُ أن يُفلت كفَّيْه على غفلة مني، ويهربَ حين تسنح له الفرصة. غير أنّ هيأته المريضة: ذبولَه وتلكؤَ حركته وخوره، وقوتي البدنية وفتوّتي في المقابل، أشعرتني بالثقة على اقتياده حيثما أشاء والسيطرة عليه إن هو حاول أن يعصى أوامري.

اقتدته إلى غرفة «القلم»، وهو يتعثر مطأطئ الرأس. وساورتني فكرةُ أن أفكّ قيده؛ ففيه كما رأيت وحشية لا تطاق، فالرجل لا يكاد يتماسك، بل إنه تهاوى أكثر من مرة، مرضاً أو همّاً. وبدا لي أن تغليل يديه يعوقه عن اتكاء الهواء والتوازن.

دخلنا غرفة طابوقية ضيقة بعد انتظار طويل في طابور أطول، من محابيسَ وحرّاس: كلّ ينتظر دوره لإتمام أوراقه. جاء دوري فشرع الجندي الماكث وراء طاولة كُدِّسَتْ عليها الملفاتُ والأوراق، بتسجيل رقمي ورقم حبيسي. ثم أعطاني مأموريتي في ورقة مطبوعة معدّة سلفاً. سألتُه:

ـ ولمن أسلمه؟

قال بوضوح وهو يحدّق فيّ مباشرة:

ـ التعليمات واضحة في الورقة معك.

ألححتُ: لمن بالضبط؟...

رد بعصبيّة:

ـ للضابط المسؤول في وحدته، في آمرية المقر بالضبط، كما هو في العنوان عندك.

ثم أضاف بخبث:

ـ والمسؤولية في حال هروب الموقوف تَقَعُ على عاتقك، وتتحمل أنت نتائجها، وهي أن تنال العقوبةَ المحكوم بها موقوفُك.

الشمس خارجاً ساطعةٌ ومرحة، وقاعات الجنود على الجانبين مثل توابيت هائلة، تترقرق في سراب يتموّج. دَرَجْتُ وسجيني إلى باب النظام الأمامي. هناك اصطفّتْ شاحناتٌ عسكرية من نوع «إيفا»، أخذتنا جميعاً إلى جسر سوق الهنود في البصرة.

*

أنزلتُ أسيري من جوف العربة العسكرية، وسرنا باتجاه السيارات الذاهبة إلى محطة قطار «المعقل». كان يقف أحياناً ويبحلق بي ذاهلاً؛ وأخيراً اتكأ على حائط أحد البيوت شبهَ منحنٍ، وخلْتُهُ سيقع. فككتُ الكلبشة وعلّقتها في نطاقي، فيما بندقيتي تستقر متهدلةً على كتفي اليمنى.

نبر بهمس: لا أستطيع المشي.

سألته متأثراً: هل أنت مريض؟

فرّ من حلقه صوتٌ ضعيف، ظننته قال: كآبة انفعالية.

ولما كانت نعلُهُ المقطوعة تَعُوقُه فقد لاح من المُحَالِ تركُه يمشي حافياً في هذا الصيف القائظ؛ فالأرض حارقةٌ شديدة الحرارة. ثم إنّني وجدتُ أنّ أخذه إلى محل أحذية لشراء حذاءٍ أشبه بمن يساعد صديقاً في محنة؛ ولم أكن لحظتها متأكداً من رقة مشاعري، رغم أنني كنت قد بدأت أعي صعوبةَ مهمتي، واستحالةَ أن أكون سلبياً إلى هذا الحد. فاخترتُ أهْوَنَ طريقة لتلافي تضارب مشاعري: وهي أن أستأجر سيارة إلى المحطة. وهذا ما حصل.

المحطة شبه خالية إلا من الظلال، والمبنى الوحيد مغلَق منطفئ، وقضبانُ السكك لامعة، والأرض الاسمنتية مربعات من الوحشة والهمود. لقد جئنا مبكرين، فالقطار يتخضخض الساعة الثامنة مساءً؛ وعند هذا التوقيت تقريباً، يبدأ القصفُ الإيراني المعتاد على المدينة. فماذا أفعل برهينتي؟

استطلعتُ الكابينات المرصوفة قرب المبنى، والمعدّة كمتاريس مدشّمةٍ بأكياس الرمل تدشيماً جيداً، فلمحتها

متربةً وخالية. أثرنا المكوثَ خارجاً، شاغليْن مصطبةً خضراءَ مشطّبة، لصْقَ باب المحطة، ندخن، والصمت يشملنا. ولم أكن راغباً في الحديث عن جريمة رفيقي المبهم هذا، ومدى جسامة عقوبته؛ إذ إنّ تذكيره بهما سيزيد ضراوة تعاسته ويأسه. ومع ذلك فقد سألته عن اسم منطقته في البصرة لإشعاره بودٍّ طفيف قد يجعل الساعات الأخيرة معه مشوبةً بملمح إنساني. ردّ منتبهاً وببرود:

ـ أنا من محلّة الخندق... وقتلتُ ضابطاً.

فوجئتُ باستطراده، إذ كنتُ أعرف أنه محكوم بجريمة قتل، دون أن أعرف تفاصيلها أو صفة القتيل الخطيرة. فسألته كالملدوغ: لماذا؟

ـ قصة طويلة يا أخي!

ناولتُه سيكارة. كانت يده ترتجف، وهو يحدق في الفراغ مُراجعاً، ربما، قصّتَهُ القاتلة. ران الزمن متجعِّداً أمامه، خارج الأمكنة، كئيباً وذاهباً إلى المجهول. ركنتُ بندقيتي إلى جانبي، كلبشتُ يمناه بمتكإ المصطبة وجعلت أتمشى مللاً، حتى إنّ من يراني يظنني أقوم بدورية حراسة. أغفى حبيسي. شعرتُ بالعطش وتمنيتُ وجود بائع مرطبات، ففتّشتُ عن حنفيةٍ تروي ظمأي، ثم دققتُ بابَ المحطة، فلم يفتح أحد. أعَدْتُ القرع. فتح شابٌ يرتدي بذلةَ موظفي السكك البابَ، وسأل بنفور: ما الأمر؟

ـ أريد أن أشرب.

ـ ادخلْ!

ـ لا!.. معي مأموريّة.

مدّ رأسه الأفعواني، ثم غاب في جوف مكعبه الحجري، ليرجع بقدح بلاستيكي مملوء ماءً ساخناً، كرعت نصفه؛ ثم أيقظتُ السجين وسألته إنْ كان عطشان، فهزّ رأسه نفياً، ثم أغمض جفنيه هنيهةً، وطلب بضعفٍ وتنفسه مكبوت: «أريد أن أذهب إلى المرحاض».

أطلقتُ يده. سُقْتُه إلى إحدى الكابينات المترسة، وأشرت إليه أنْ هنا المرحاض. ولج المتراس؛ انتظرتُهُ، وعقب خروجه لم يتطلع فيّ، بل رجع إلى المصطبة كالمُسَرْنِم. رفع يده كي أقيده، وعيناه تغيمان بما يشبه الغيبوبة، وما لبث أن أغفى ثانيةً، ورجلاه تهزُّهما ارتجافةً وتيدةً كبقايا روح تنسلّ من جسدٍ يُحَشْرِج. سلبني شرودٌ عميق، شغلتني أسئلةٌ من نوع: كيْف سيلاقي هذا الكائنُ حتفه؟ كيف سيواجه فصيلَ الإعدام؟ وكيف سيُهشّم هذا الجسدُ الهشُّ، الرخوُ، بكتل الرصاص اللاهبة؟ وقلّبتُ أفكاري في معاني الموت، دون أن أستوعب أسبابها تماماً. غطّتْ رهينتي في نوم عميق، أو في إغماءة، لا أدري، وأنا أمعن النظر في أوّل وفود المسافرين من جنود مجازين، وجنود انضباط، وقرويّين، وتجّار، وعاهرات، وطلاب، وضباط صف، وهائمين. حلّتْ ساعةُ المساء طائراً رمادياً هائلاً؛ التعبُ والترقب والقلق باديةٌ على سحنات المسافرين، والقطار يتداعى إلى المحطة بكتلته المتجبرة، بطيئاً يجرّ وراءه عرباتٍ خضراءَ، تتلامح خلف شبابيكها وجوهٌ ناحلةٌ، تعبة ما فتئت أن نزلت وتلاشت هارعةً وراء الزحام وكأنها تودّ الفرار من المحطة. وتأهّب الراحلون للصعود بصمتِ مَنْ يترقّب زعيق صفّارات الإنذار بين آونة وأخرى. لم يكن أحد يلتفت: كان الكل يحملق أمامه، مندفعاً نحو قوة غامضة كأنما ستقرّر مصيره.

ندهتُ سجيني؛ أضحى يفهمني بالسجيّة. أطلقتُهُ. اندسسْنا في الزحمة، عاونتُه على ارتقاء العربة واندفعتُ وراءه. كمشتُهُ من قميصه عند الممر الضيق بين المقاعد. اخترتُ مقعدين فارغين كيفما اتفق، وأجلسته وربطتُهُ بمسند المقعد. اهتزت العربة. ارتججنا قليلاً، واصطكّ حديدُ العجلات والسكك على هَدْي دويٍّ صفّارةٍ طويلةٍ أعلنَتْ مغادرتنا محطةَ المعقل في البصرة. وما بين صفنة وأخرى غلّفتْ وجهي ووجوه المسافرين، كنت أتابع صاحبي الهامد إلى جانبي، وهو غيرُ معنيّ ـ كما يلوح ـ بمصيره، وذوائبُ وهنٍ ظاهرٍ تمسّ شفتيه المرتخيتين. خلتُ أنّ الكلبشة تضايقه وهو يتقلّب باحثاً عن وضع يريحه، قبل أن يتسنى له نومُه. فكّرتُ أن أريحه إلى حين؛ فهو الآن مقيّد بجدران العربة المنطلقة بسرعة سحيقة، ناهيك عن هزاله وموات حركته. وبعد أن غاص في إغفاءة تامة، فككتُ قيده وتملّصتُ بهدوء صوب المرحاض كي أتبول. دلفته، وبندقيتي تهجع على ظهري. وفي اللحظة التي عملتْ فيها مثانتي على إفراغ مائها، وأنا أحملق من الكوة الصغيرة في ظلام يندفع بقوة صاعقة وراءً جارفاً معه الفيافي والقرى، هزّتني خضّةٌ قوية، ثم توقف القطار فجأة. هلعتُ. هرعتُ خارجاً إلى جوف العربة. واجهني المسافرون هائجين، ورجال انضباط وضابط وقاطع التذاكر يخزرونني. صرخ رجل، مشحوناً بالحمية، كان شاهداً كما يلوح:

ـ هرب الرجل الذي معك!

وقبل تصريحه المتوتّر هذا، كنتُ قد عرفتُ باختفاء رفيقي القاتل؛ فالمقعد أنبأني بحماقتي وفداحةِ موقفي، والشباك قرب مقعدنا مفتوحٌ يشي بالرعب والغدر، والشاهد يستطرد بصوته المَرَضي: